نقولا حداد

«للسرقة قانون عقوبة معروف ومدون، ولكن ليس لقيام الرأسمالى بسرقة عرق العامل قانون. فهذه السرقة لا تعد جريمة فى نظر القانون. ولهذا نقول: إن الاشتراكية تطالب بسن هذا القانون».

نقولا حداد

نحن إزاء مثقف لبنانى المولد مصرى الإقامة والعشق. ولد فى الشوف (لبنان) عام ١٨٧٢ لأب فقير، بل وشديد الفقر، لكن الفتى كان شغوفاً بالتعلم. ولما مات والده وهو فى السابعة عشرة من العمر، ظن الجميع أن الفتى سيترك المدرسة ليتفرغ لإعالة الأسرة، لكنه عاند الجميع. اشتغل فى عديد من المهن وواصل تعليمه فى آن واحد، ثم عاند مرة أخرى فكان يدرس مناهج عام دراسى كامل فى الإجازة الصيفية فيقفز عامين دراسيين كل عام. ثم عاند ثالثاً بأن اختار الدراسة فى أصعب الكليات وهى كلية الصيدلة وتخرج عام ١٩٠٢ فى كلية بيروت الإنجيلية. وما إن حصل على شهادة الصيدلة حتى هاجر إلى مصر. وفى مصر التقى بفرح أنطون وبشقيقته روز وتزوج نقولا روز التى كانت تتفجر حيوية وليبرالية وأصدرت فيما بعد مجلة نسائية باسم «السيدات والبنات».

وفى ١٩٠٧ يتلقى فرح أنطون رسالة من ابن عمه إلياس أنطون تدعوه إلى الهجرة لأمريكا لتولى العمل الصحفى فيها، خاصة أن المهاجرين الشوام هناك حقل واسع لبث المبادئ الحرة. (ملحق مجلة السيدات والبنات سنة ١٩٢٣). وسافر الثلاثة فرح ـ نقولا ـ روز، وهناك التقوا بأمين الريحانى وميخائيل نعيمة وكونوا معاً «الرابطة القلمية» وأسهموا فى إصدار «الجامعة» و«السائح».. وتتلمذوا على يدى المفكرين اليساريين الأمريكيين مثل يوجين دبس (أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى الأمريكى) وهنرى جورج مؤلف كتاب «التقدم والفقر».

وإذ هزت العالم بأسره أحداث الانقلاب العثمانى الذى قادته حركة الاتحاد والترقى، وأطيح بالخليفة المستبد، وبدأت الدولة العثمانية عهداً جديداً. كتب نقولا إلى فرح الذى كان خارج نيويورك قائلاً : «سرورى بهذا الانقلاب عظيم حتى إنه مضى على يومان وأنا لا أنام من شدة التأثر. ولقد حان الوقت للعمل والنهوض بالأمم الشرقية التى استيقظت من سباتها» (المرجع السابق).

وقرر الفرسان الثلاثة العودة إلى مصر. ولكن لماذا مصر بالذات؟ يجيب نقولا: «عدنا إلى مصر، الوطن الذى قضينا فيه عهد الشبيبة، وهو المركز الأوسط لجميع العالم العربى ومنه تنتشر الخدمة الوطنية والأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات».. لكن الثالوث الليبرالى يعود وقد تمتع بفكر جديد هو الاشتراكية. ويجب أن نلاحظ هنا مسألة مهمة وهى أن نقولا حداد تميز عن عديد من الشوام الذين أتوا إلى مصر فوجدوا فيها وفى ظل الاحتلال، مساحة من حرية الكتابة والرأى فمدحوا الاحتلال نكاية فى العثمانيين، مثل شبلى شميل وولى الدين يكن، أما نقولا فقد قال لهؤلاء: «إن تحرير مصر من الاحتلال هو أمنية كل مصرى. وما من مصرى يقبل مناقشة فيه ولو قلت له إن الإنجليز خدام للنبى محمد لأصر على القول: لا أريدهم. ففى هذا الأمر لا يقبل المصرى مناقشة». ولعلها ليست مصادفة إذ أصدرت «روز» طبعة ثانية من رواية فرح أنطون «صلاح الدين ومملكة أورشليم» فأهدت الرواية فى صدر صفحتها الأولى «إلى روح الوطنية المصرية، إلى الرئيس العظيم سعد، وكفى بسعد دلالة على النبل والوطنية والتضحية».

وفى عام ١٩١٧ تتفجر الثورة الاشتراكية وتتفجر معها وفى الساحة المصرية عشرات من الأسئلة والإجابات والاتهامات والدفاعات، وكان نقولا جاهزاً للتوضيح والرد، ومضى زمن نصب فيه نقولا نفسه حارساً للاشتراكية وحامياً لها من الهجمات.

وفى عام ١٩١٨ ينشر نقولا فى مجلة «الهلال» مقالاً مطولاً بعنوان «الاشتراكية.. ما تطلبه وما لا تطلبه» يقول فيه: «قرأت فى عدد الهلال الماضى تحت عنوان "حل المشكلات الاجتماعية الكبرى بمشاركة العمال" رأيت أنه إذا لم يذيل بإيضاح قضية الاشتراكية كما تنقت وتصفت أخيراً لبقى الذين لا يعلمون شيئاً عن حقيقة الاشتراكية – وهم كثيرون على ما أظن ـ متورطين فى اعتقادهم السيئ عنها».

ويتحدث نقولا عن النظام الرأسمالى قائلاً: «إن وجه الإجحاف فيه أنه يفضى إلى

تجميع الثروة التى هى ثمرة تعب العمال وحدهم فى أيدى فئة من الناس، وحرمان العمال من هذه الثمرة. فقد استطاع أفراد قلائل أن يجمعوا فى حياتهم من الأموال ما لا يتصوره عقل، فى حين أن ألوفاً من العمال يتسولون عملا يتعيشون منه فلا يجدون.

أما النظام الذى يبتغيه الاشتراكيون فيمكن إجماله بكلمتين وهما: نقل الشركات وجميع المرافق التى تعمل فيها مجموعة من العمال وجميع العقارات من أيدى ذويها إلى أيدى الحكومة بحيث تصبح هذه المرافق المنتجة للثروة ملكا للأمة وبدلاً من أن تكون ملكاً لحفنة من الناس يستولون وحدهم على أرباحها تصبح ملكاً للأمة كلها وتعود أرباحها للأمة كلها».

وفى عام ١٩٢٠ يصدر نقولا حداد كتاباً بعنوان الاشتراكية يقول فيه: «إن النظام الرأسمالى يطلق العنان لسنة الصراع بين الأفراد بحيث يمكن للقوى أن يتمتع بقيمة تعب الضعيف. وبعبارة أخرى يسمح للقوى بأن يعيش عالة على الضعيف، وهو نقيض الاشتراكية التى تقضى بأن يتمتع العامل بثمرة عمله كلها على اعتبار أن الناس وهم مشتركون فى العمل يجب أن يتقاسموا ثمراته كل على قدر قيمة عمله».

وفى كتابة أخرى يلخص نقولا حداد الأمر كله تلخيصاً بديعا: «فالعامل ملزم أن يعمل لأجل معاشه ولأجل بذخ صاحب العمل أيضاً وإلا سيموت» (علم الاجتماع ـ الجزء الأول ـ ص٢٣٥).

* * *

«إن مذهب الاشتراكية منطقى معقول، ومبنى على سنة اجتماعية اقتصادية منصفة، ويقضى بقلب النظام الاقتصادى الحاضر ووضع نظام جديد».

نقولا حداد

ونواصل رحلتنا مع نقولا حداد فى حديثه عن الاشتراكية وهجومه على الرأسمالية.. ونقرأ تحليلاً رقمياً بديعاً يقول: «خمسة آلاف أمريكى أى ١ : ٢٠٠,٠٠٠ من السكان يملكون ثروة الولايات المتحدة كلها تقريباً ـ وإذا كان البعض يزعم أن هؤلاء الأغنياء يمتلكون مقدرات ذهنية وعملية كبيرة فيستحقون هذه الثروة نقول لهم إن رئيس الجمهورية الفرنسية يجب أن يترأس الجمهورية أكثر من ٤١ سنة، وأن يوفر ماهيته كلها حتى يجمع مليوناً واحداً. وكذلك رئيس الجمهورية الأمريكية يجب أن يترأس الولايات المتحدة خمسين عاماً كى يجمع المليون. وعلى المليونير روكفلر أن يترأس الولايات المتحدة عشرة آلاف سنة

حتى يتمكن من جمع ثروته الحالية،هذا إذا لم ينفق مليماً واحداً من ماهيته». ويمضى نقولا حداد فى فضح النظام الرأسمالى رافضاً «محاولات تسكين الأوجاع بمورفين الإصلاحات»، ويقول: «نحن نريد أن ينال العامل حقه، وأن يتمتع بثمرة عمله وأن يغاث وقت الضيق بحق له وليس بصدقة عليه». ويختتم نقولا حداد كتابه الرائع عن الاشتراكية بفصل ختامى عنوانه «مصير العالم إلى الاشتراكية».

وفى عام ١٩٢١ وإذ يعلن الاشتراكيون المصريون تأسيس «الحزب الاشتراكى المصرى» بقى نقولا بعيداً عن الحزب لكنه خاض معارك الدفاع الفكرى والسياسى عن الاشتراكية. وعندما أصدر الشيخ التفتازانى فتوى ضد الحزب وقال إن الاشتراكية مناهضة لكل الأديان رد نقولا فى مقال بالأهرام (١٩٢١/٩/١٢) يقول فيها: «إن الاشتراكية ليست كما يفهم من مقالة الشيخ التفتازانى بتاتاً، فالاشتراكية عقيدة اجتماعية ولا شأن لها بالمسائل الدينية؛ وإن كانت فى الحقيقة أكثر توافقاً مع الأديان من سائر الأنظمة الغابرة والحاضرة». ويمضى نقولا مؤكداً أنه لا يمكن تحقيق ديمقراطية حقيقية فى ظل الرأسمالية فيقول فى كتابه الموسوعى «علم الاجتماع»: «وما دامت الديمقراطية الحاضرة ناقصة وتسمح بالتفاوت الاقتصادى أى ما دامت لم تطبق على أساس المبادئ الاشتراكية وما دام مباح للأفراد أن يجمعوا الثروات الطائلة فإن السلطة سوف تغتصب اغتصاباً حتى من تحت ذقن الديمقراطية، لأن السلطة الأولى هى للمال مع أنه يتعين أن تكون للعلم وللأخلاق».

ثم يصدر نقولا مجلداً ثانياً بعنوان «تطور الهيئة الاجتماعية» يقول فيه: «لا يستطاع إقرار الحق الاقتصادى على قاعدة الديمقراطية ما لم تتقلقل الأنظمة القائمة وتتزعزع وتتداعى، ولا يستطاع بناء نظام اقتصادى جديد إلا بهدم كل نظام له علاقة بالنظام الرأسمالى وإلا إذا ألغيت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وأصبح كل ذى قيمة ملكاً للأمة، وتحت إدارة الحكومة» (ص٣١٣).

وهو يدافع عن الحرية دفاعاً مستميتاً فيقول: «كل قوة تخنق الحرية تعد مجرمة، ويحق للشعب الذى تخنق حريته أن يخرج على هذه القوة وأن يتمرد عليها ويقهرها إذ إن أساس شرعية كل سلطة هو إطلاقها الحرية للجمهور الخاضع لها، وحيث انتفت هذه الحرية تصبح السلطة غير شرعية».

ثم يصدر نقولا كتاباً عنوانه «علم أدب النفس» يقدم فيه أول محاولة عربية لتقديم تفسير علمى وتقدمى لمفردات مثل الانفعالات والسلوك والإرادة والجمال والضمير والفضائل والرذائل والحقوق والحرية. وهو يؤكد فى هذه الدراسة على قيمتين أساسيتين الحرية والعدالة فيقول: «إن الحرية شاهد على إنسانية الإنسان والعدالة هى معيار الضمير إن تحققت تحقق» (علم أدب النفس ـ ص١٧).

ونقولا حداد مثقف موسوعى وكتاباته تشعبت فى فروع عديدة، فمع دراساته عن الاشتراكية، هناك كتب أخرى عديدة منها: «هندسة الكون بحسب قانون النسبية ـ فلسفة الوجود ـ عالم الذرة ـ الديمقراطية مسيرها ومصيرها ـ مناهج الحياة ـ ذكرا وأنثى خلقهم ـ الحب والزواج»، كما ترجم كتباً عديدة وله فوق ذلك مجموعة أدبية من الروايات والمسرحيات الممتعة منها: «ثورة عواطف ـ زغلولات مصر ـ جمعية إخوان العهد ـ فرعون العرب عند الترك ـ حواء الجديدة ـ ثورة فى جهنم ـ حركات السيدات فى الانتخابات».

وعندما تفجرت قضية فلسطين عام ١٩٤٧ وصارت الشغل الشاغل للعرب جميعا يكتب نقولا حداد عديداً من المقالات فى «المقتطف» و«الرسالة» و«منبر الشرق» كرسها للهجوم على الصهيونية وعلى نظرية «شعب الله المختار». وكان نقولا حداد فوق ذلك كله فنانا يعشق الموسيقى الشرقية يكتب عنها عشرات المقالات ويهاجم أشهر المغنين أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، إذا استخدموا ألحاناً غربية قائلا: «إنهم يفسدون الذوق الشرقى الأصيل».

ويتقدم العمر بنقولا فيقضى وقته فى الكتابة ويمضى أوقاته كل صباح فى محل «لوك» قرب ميدان سليمان باشا، أما أمسياته فكانت جميعا فى النادى الشرقى، حيث مقر حزب التجمع الآن. وفى هذه الجلسات كان يلتف حوله عدد من تلاميذه ومنهم وداد سكاكينى وزوجها د. زكى أبو المحاسن ومحمد عودة ووديع فلسطين وعلى أدهم وغيرهم.

وعانى نقولا فى حياته اضطهادا، ذلك أنه قد صنف كشيوعى كما ورد فى تقرير للأمن البريطانى الذى وصفه بأنه «صريح فى التعبير عن آرائه السياسية، ويمكن القول بأنه اشتراكى ثورى له ميول شيوعية» (F.O. ١٤١ ـ ٧٩٩) وتسبب ذلك فى حرمانه من منصب رئيس تحرير «المقتطف». ولكنه ظل صامداً. وظل يتردد على النادى الشرقى. ليلقى محاضراته ويجلس إلى تلاميذه. وذات مساء كان مريضا وارتفعت حرارته، وألحت عليه

«روز» أن يعتذر عن محاضرته لكنه صمم وألقى محاضرته بصوت واهن وكان عنوانها «جاذبية الأكوان وجاذبية الحسان» وخرج إلى بيته فى ليلة شديدة البرودة.. وأصيب بالتهاب رئوى ورحل. وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٥٤. ويبقى أن نقول إن نقولا حداد هو عم الشهيد د. فريد حداد الذى استشهد فى سجن أبو زعبل، وأيضاً خال إدوارد سعيد المفكر الأشهر.